الهند ضد الاستعمار البريطاني ، وعلاقتها بالإسلام

بقلم : الأستاذ محمد راشد كمال الندوي
(جامعة جواهر لال نهرو – نيو دلهي)

إن علاقة الهند مع الإسلام والمسلمين قديمة جداً ، يرجع تاريخها إلى عصر الصحابة ، فتحها محمد بن قاسم الثقفي ، واستولى عليها المغول واستوطنوها ، وتركوا آثاراً خالدةً ومعالم شهيرة ، لا تزال تشهد بحبهم للوطن و وفائهم به ، دخل الهند الإنجليز كتجار في القرن السادس عشر ، ثم بدأوا يتدخلون في شئون سياستها الداخلية بصورة تدريجية ، حتى استعمروها وتولّوا زمام أمورها قرنين تقريباً ، لكن لم يقبل الشعب الهندي المتحمس السلطة الإنجليزية قط ، بل استمروا في سبيل الكفاح لأجل الحرية ، وكرّسوا حياتهم للدفاع عن قضية وطنهم الهند ليقودوها نحوا الاستقلال ضد بلاد المستعمر التي قيل عنها أنها لا تقهر ولا تغيب عنها الشمس ، إلى أن نالت حريتها يوم ١٥/أغسطس سنة ١٩٤٧م .

إذا أمعنا النظر في تاريخ استقلال الهند ، وجدنا أن حركة التحرير قد بدأت منذ القرن الثامن عشر ، حيث إن أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ "الشاه ولي الله الدهلوي" هو أول شخص وعى بخطر ازدياد السلطة البريطانية ، ولفت إليه انتباه الأمراء والسلاطين وأشار عليهم بإعداد جنودهم ضد الإنجليز ، وكتب كثيراً من المقالات والكتب ، وحث الشعب الهندي ضد الاستعمار البريطاني ، لم يستطيع أن يقوم الشاه ولي الله بتنفيذ إرادته وأفكاره بنفسه ، لكن ترك وراءه أولاده ورفقاءه الذين قاموا بتربية الناس على منهج فكره ، وبثّ آرائه

بين الشعوب والقبائل وأعدوا جماعة مخلصة ، وكان من أنجاله البارّين الشيخ عبد العزيز الذي أصدر الفتوى ضد السلطة الإنجليزية عام ١٨٠٣م ، وأعلن أن الهند أصبحت دار الحرب ، وبرز من حلقة عبد العزيز رجل فذ يعرفه التاريخ بالسيد أحمد بن عرفان الشهيد ، وأسس حركة تسمى بـ "الحركة الإصلاحية" أما الإنجليز ، فنادوها : "الحركة الوهابية افتراءاً عليه ، وقد بين السيد أحمد في إحدى رسائله التي كتبها إلى الأمير كامران بن شاه محمد الدراني حاكم الهراة أن هدفه الحقيقي إقامة الجهاد في الهند التي استولى عليها الإنجليز ، فأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، لم يستطيع السيد أحمد أن يقود الحركة طويلاً من أنه استشهد مع بعض رفقائه في حادث بالاكوت في ٦/أو ٧/مايو عام ١٨٣١م ، وكانت شهادته حقاً نكسة كبرى للمجاهدين ، لكن استمروا في مهمتهم التي تهدف إلى طرد الإنجليز من أرض الهند ، ولهم دور رائع في قيادة الحروب الدامية والقتل الفتاك حتى عانوا من مصادرة الأملاك والأموال بحكم السلطة الإنجليزية ، ومحاكمات طويلة ، ولو وضعت مآثر الفداء والإيثار والبطولة في الهند كلها التي يحكيها تاريخ حركة التحرير والكفاح الوطني في كفة ، و وضعت مآثر السيد أحمد وأصحاب الحركة الإصلاحية وبطولاتهم في كفة أخرى ، لرجحت هذه الكفة الأخيرة رجحاناً ظاهراً ، ومن تأثير الحركة الإصلاحية المشتقة من أصول الشاه ولي الله وفكرته السياسية ، تَمهّد السبيل للثورة الكبرى الواقعة في عام ١٨٥٧م ، وشارك فيها كل من المسلمين والهندوس وأصحاب الديانات الأخرى بدون أي تفرقة (١) .

(١) أما في جنوب الهند ، فكان ملكاً غيوراً باسلاً يعرفه التاريخ بالسلطان تيبو ، انتبه للخطر الإنجليزي انتباهاً تاماً ، و حث أمراء الهند على القضاء عليه ، >>>

من المعلوم أن الشعب الهندي لم يرضوا بالحكم البريطاني قـط ، بل ما زالوا يقاومونه من أول يومه ويرفعون أصواتـهم ضد اضطهاد الإنجليز من حين لآخر ، ولم يدخروا وسعاً في تحرير البلاد من براثن الاستعمار البريطاني وتظهر هذه الحقيقة من ثورات المدنيين والفلاحين والقبائل ، التي حدثت في مختلف أرجاء الهند وازدادت مع مرور الزمان ، حتى شهدت الهند ثورة تاريخية كبرى ، تكاد تجرف الحكم البريطاني ، ساهم فيها المسلمون والهنادك سواءاً بسواء .

ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية لحركات التحرير بعد الثورة العظمى .

📖 المؤتمر الوطني الهندي : (Indian National Congress) :

تأسس المؤتمر الوطني الهندي في عام ١٨٨٥م ، وكانت خلف تأسيسه فكرة رجل إنجليزي ، اجتمع اثنان وسبعون شخصاً في مومباي لحضور أول اجتماع لهذا المؤتمر ، وكان جميع الخطب التي ألقيت باللغة الإنجليزية ومقتصرة على تعابير الولاء للعرش البريطاني ، أما المطالب ، فقد كانت بشأن إصلاحيات إدارية وأمور اقتصادية ، وقضايا الناس بالنسبة لوظائفهم ، وتعويض أحوالهم الشاقة العصيبة ، فبالإيجاز كانت

>>> وحارب الإنجليز حرباً عنيفةً بكل ما يملكه من قوة حربية وعتاد ، وكان ينهار حكومتهم ، لو لا أنهم نجحوا في ضم أمراء الهند في جنوب الهند على معسكرهم ، واستشهد الملك المجاهد في المعركة ، ٤/مايو سنة ١٧٩٩م ، وفضل موت البسالة والعزة على حياة الجبانة والذلة ، وقال : "يوم من حياة الأسد خير من مائة سنة من حياة ابن آوى" ، ولما بلغ القائد الإنجليز شهادة السلطان حضر و وقف على جثته ، وقال : "اليوم الهند لنا" كان السلطان تيبو بلا ريب قائداً عالي الهمة وبعيد النظر وشديد الغيرة على الدين والوطن .

القضايا الاقتصادية أكبرهمّ للمؤتمر الوطني الهندي وراء تشكيله وائتلافه ، ويعقد هذا المؤتمر مجلسه السنوي على الأقل مرة واحدة في كل سنة ، تحوّل المؤتمر إلى السياسة مباشراً بعد تقسيم ولاية البنغال ، وأعنن لأول مرة في جلسته السنوية المنعقدة في كولكاتا سنة ١٩٠٦م نظرية "سوراج" ، مما يعني الحكم الذاتي المعبر عن الحرية السياسية والاقتصادية الكاملة ، ودعا لمساعدة حركة المقاطعة ، وكانت حقاً هذه المطالبة خطوة تجاه الاستقلال الحقيقي ، حتى أعلن سنة ١٩٢٩م بأن الاستقلال الكامل هو هدف نهائي له .

📖 العصبة الإسلامية (Muslim League) :

بعد تقسيم إقليم ببنغال بين الولايتين في عام ١٩٠٥م ، بدأ يفكر الزعماء المسلمون في إنهاض أمتهم الراقلة وإيقاظها من سبات الغفلة ، وأسسوا جمعية تسمى بالعصبة الإسلامية بقيادة آغا خان وسليم الله في دهاكا عام ١٩٠٦م ، ونادت هذه العصبة بالحقوق السياسية وفرص العمل في الحكومة بالنسبة للمسلمين ، وتحدّثت عن مشاكلهم ، لكن بقيت وفية للحكومة الإنجليزية حتى نهاية عام ١٩١١م ، ثم حوّلت فيما بعد نظريتها ، وخالفت السلطة البريطانية ، وطالبت بالاستقلال ، ونادت في الأخير بتقسيم الهند .

📖 جمعية علماء الهند :

تأسست جمعية علماء الهند لأجل توحيد صفوف العلماء الذين كانوا في الهند بعدد لا يستهان به ، وقام بتأسيسها الرسمي شيخ الهند محمود الحسن في عام ١٩١٩م ، كانت للجمعية أهداف جليلة جديرة بالثناء في الدفاع عن الوطن والملة السمحاء ، أكثر أعضائها كانوا خريجي جامعة دار العلوم بديوبند .

📖 حركة الخلافة :

كان عام ١٩١٩م زمن المحن والفظاعة في السياسة الهندية ، والمسلمون يحزنون على فوات الخلافة العثمانية والخسائر في المناطق العربية على المستوى العالمي ، والهندوس مع المسلمين على حادث "جليانوالا باغ" على المستوى القومي ، الذي بلغ فيه عدد القتلى والجرحى ألفين على الأقل ، في مثل هذه الأوضاع ، أسس الأخوان محمد علي وشوكت علي حركة الخلافة ١٧/أكتوبر ١٩١٩م ، ونادى الهنود ذاك اليوم " بيوم الخلافة" وكانت ترمى هذه الحركة إلى تكوين الوعي السياسي والحماس الوطني وكراهة الإنجليز ، وكان مركزها مدينة مومباي ، وفروعها منتشرة في القرى والبوادي ، وكانت تعد أكبر الحركات الإسلامية في الهند ، وكان جميع المناضلين للحرية أعضاءها وخدامها ، قاد أبو الكلام آزاد هذه الحركة واحتضنها الزعيم غاندي طبقاً لعواطف المسلمين وتأييداً لقضية عادلة ، وقام برحلات طويلة مع محمد علي وشوكت علي ، كان يخاطب فيها الجمهور ويخطب في الحفلات الكبيرة التي لم تشهد البلاد مثلها ، وكان الجمهور يستقبل هؤلآء الزعماء بحماسة منقطعة النظير ويهتف بحياتهم ، لكن بالأسف الشديد لم تستطيع هذه الحركة أن تحيا طويلاً ، فاصطدم زعماؤها فيما بينهم وتضاربت وجهة نظرياتهم ، حتى انعزل أبو الكلام مع أتباعه إلى المؤتمر ، وتابعه أكثر أعضاء الحركة .

📖 حركة اللاتعاون ومقاطعة البضائع الأجنبية :

لما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، أصرّ المسلمون لدى رئيس الوزراء البريطاني للويد جورج (Lloyd George) على إيفاء الوعود ، التي وعدها مع المسلمين في شأن خليفة تركيا بأنه لا يحمل الضغينة ضد الخليفة ، ولكن الحكومة البريطانية لها خطة أخرى وهي تعامل بالمكائد بالنسبة للوعود ، فاتفق الأخوان محمد علي وشوكت

علي وأبو الكلام آزاد والزعيم غاندي على إدارة حركة اللاتعاون واقترحوا فيها مقاطعة البضائع الأجنبية والمدارس البريطانية ومقاطعة الحكومة الإنجليزية والإضراب عن التعاون معها في دوائرها وفي جيوشها وأقرت جلسة خاصة للمؤتمر بهذا الاقتراح ، وتقدمت العصبة الإسلامية إلى الائتلاف مع المؤتمر الوطني الهندي في تأييده لهذه الحركة ، واتحد صوت الهند في قضية الخلافة بصرف النظر عن اختلاف الديانات والعقائد ، وكان هذا الاتحاد بين المسلمين والهندوس أول ظاهرة من نوعها في تاريخ الهند الحديث ، ومضوا على رصف الصفوف وتوطيد العزم لمقاومة الحكومة الإنجليزية وسياسية حلفائها في قضية الحكومة العثمانية ، والنداء إلى تحرير الوطن وتأسيس الحكومة الاستقلالية .

علاوة على ذلك ، تشكل عديد من الأحزاب والحركات الأخرى ، التي ساهمت في تحقيق تحرير البلاد ومنها : "حزب غدر" والحزب الشيوعي الهندي و "حزب سوراج" وحركتي العصيان المدني وهجر الهند وما إلى ذلك .

ما من شك في أن المسلمين هم الذين استشعروا بخطر الإنجليز أولاً ، وبادروا نحو اتخاذ الخطوات في هذا الإطار ، واطلعوا عليه أبناء البلاد وأيقظوهم من سبات عميق ، ثم ساهموا جميعاً في سبيل الحرية ، وتجلّى اتحاد المسلمين والهنادك في أروع مظاهره ، واتحدوا في مهاجمة الحكومة الإنجليزية ، وبذلوا كل ما في وسعهم في هذا السبيل ، وما زالوا يناضلون ضد الاستعمار البريطاني ، حتى نجحوا في إبعاد الإنجليز من أرض الهند .

***